

رمضاني في غمام

القبو

في قبونا ، في الضيعة ، جنية في موقدة .
فاذا كان الشتاء وازدحم الليل في قبونا اوصدنا ، دون الرياح الهوج والبرد المتطفل ،
باب القبو والنافذة . واسرجنا فاستدارت جزيرة من نور ضئيل على حصير ، قرب
الموقدة . وتربتنا على الحصير ، متحلقين حول الجدة ، ضارعين اليها ان توقظ الجنية .
تضرم الجدة النار فتندلع اللسنة وتحوم الاشباح على الجدران والحنايا ويعمر القبو ،
على ضيقه ، بالارواح والمردة والمائلة والقماقم والاحصنة المجنحة .
وتحنو الجدة على الموقدة فيلتهب وجهها ، وتشير اشارة فينبعث صوت خافت لا
ندري مصدره . ثم يرتفع ويمتد وينسجم رتيباً ، فتتطاير الحكايات والاساطير وتهاافت
من كل حذب وصوب وتتألب ، حتى اذا احتشدت وضاق بها الجو اندفعت وصدعت
الجدران والحنايا وانقلبت الدنيا في اعيننا .

ندب مع الحكايا حيناً على الارض ، ثم نأخذ باجنحة الاحصنة وننتقل في الفضاء . ندنو من النجوم ، نرود القمر والكواكب . نحصي النجوم باصابعنا فتزجرنا الجدة خوف ان تنبت التآليل في اطرافها . وننادى في الشرود حتى لا قبو ولا ليل ولا جدة ولا موقدة .

نحن في اجواء النور ، نتمدد على حشايا الغمام او ندور في حلقات النور . نذهب في بحران لا نعود منه الا على زجرجة العاصفة دوي الرعد فنهلح . ويمر الرخ فنعلق بمخالبه ويهوي بنا .

نتهاوى ونتهاوى ونظل حتى نهبط في اودية من الياقوت او بحار من المرجان . نجول في مدن عجيبة خاوية خالية وقصور مسحورة ومغاور مرصودة .

نمخر في سفن الحيتان ونغوص الى الاعماق ونجزع فنطبق الاجفان رهبة ، فاذا نحن في احضان الصبايا يداعبننا ويبتسمن لنا . في احضان الصبايا حدائق ورد وياسمين وفوارات لآلىء وطيور تنتفض فتقلب اشعة مفردة . في احضان الصبايا تنبت لنا اجنحة فنطير ، ويعبق فينا الطيب فلا ندري نحن ازهار ام ماذا ؟ نمر اخف من النسيم على مواطن لم نألها من قبل ونرى اناساً كانوا في عروقنا منذ كان البشر . نرى نفوسنا بغير مرآة . تكلمنا الفراشات وتؤانسنا الاشجار وتقني لنا الاصداء . نرف على اجسامنا الخامدة ولا نعجب اننا متنا ولا نزال . لا نعجب من اي شيء عجيب نراه .

في حضن الصبية جدة طفلة تفهقه . حولها صغار يحرون لحام ويتعثرون بها . لا تلبت القهقهة ان تصبح عواء ذئاب . تهاجمنا الذئاب بسرج من نار . تصرعنا كلاب نابجة صاخبة فتخفق قلوبنا ذعراً ويندى جبيننا عرقاً ، فنفتق بصدور واجفة ، فاذا اشعة الشمس تلعب في شعورنا وتداعب وجوهنا ، واذا نحن في قبو خال : لا جنية ولا دنيا عجيبة .

الساقية

بالقرب من قبونا ، في الضيعة ، تمرّ الساقية .

النبع بعيد في اعلى الضيعة . فكلما طلع الصبح في الصيف حملنا اباريقنا الى النبع لنملأها من زلاله . النبع المستظل بأشجار الجوز والخور ينقلب صاحباً من ظلمة اسره ويتدفق هازجاً في النور ، يهتف للحرية ، يحلم بالتشرد والانتشار ، يتطلع الى الآفاق . يمرّ مسرعاً والشوق يدفعه ، لكنه ما يلبث ان يرى نفسه اسيراً بين جدارين ، فيكتئب ويأخذ في التفتيش عن مفر . يحسد الطير والفراشات والنسيم الذي يمرّ به والغمام . يفتش عن الحرية فيقولون له : « انت الآن ساقية ولا خير فيك ما دمت حرّاً . انت حرّاً الى ان تشاء » .

فتجري الساقية على مضض ، حتى اذا وجدت منافذ وغفلة من الرقباء ارسلت طلائعها في الحلاء ، فاندفعت الطلائع بقوة وانبسطت مرحلة تتغلغل بين الحجارة والاعشاب . لكنها ما تنتشر حتى تفيض ، فتبكي الساقية ما فقدت من طلائعها وتعود الى كبت ما بها من طموح وتقول : « في الحرية ضياع ! »

وتجري ، طوال النهار ، هادئة في وحشتها لا يؤنسها الا اولاد صغار يداعبونها ويماشونها ويلقون فيها ضحكاتهم وازهارهم واوراقهم وفتات طعامهم .

تدور بهم في الطرقات وبين البيوت وتحاول ان تقص عليهم حكاياتها ، لكنهم لا ينصتون بل تغلب جلبتهم على حديثها فتخفت من صوتها وتمضي .

لكن اذا هبط الليل وخيم السكون ومرت بالقرب من قبونا تمهلت واصغت لما يتلى في قبونا في الشتاء من حكايا الجنية قرب الموقدة .

واصفت في الصيف لثرثرة صغار نبتهم عتمة القبو وجردهم الحرّ من بعض ثيابهم فتحلقوا على المسطبة تحت ضوء القمر . تصغي اليهم حتى اذا ملّوا وسكنوا شرعت في القصص عليهم وعلى الطحلب والعشب والحصى .

« انا من السماء » ، تقول الساقية بعزة واقتخار . فيضحك الطحلب وتهزأ الحصى وتعجب الازهار .

وننظر ، نحن الصغار ، الى السماء . ولا تأبه الساقية فتقول : « انا من السماء فلا تعجبوا . انا جاورت القمر والنجوم وحلقت مع النسر وجبت الابعاد مع الشواهين فرأيت اطراف العالم وعجائب الكون » .

فنقول : « وهل من ابعاد وراء الجبل والسهل ؟ » وتقول الساقية : « لهوت بالبرق ودويت مع الرعد وتطهرت بنار الصاعقة ، فانا نقية نقاء السماء » .

فتنبسط السماء في اعيننا ، فنغمس في الساقية ايدينا ونمسح بها وجوهنا ، علّنا نشتم منها رائحة السماء ونعود منها بالطهر والنقاوة .

وتقول الساقية : « انا جلّلت بالطهر متون الجبال وغردت في الاودية فاحصدت فيها الرياحين والاطيار ، وتغلغلت في احشاء الارض فدبت فيها الحياة واهتزت الجذور فحنّت الى النور . توغلت في الاعماق فمررت بالماس والياقوت والزمرد وسائر الحجارة الكريمة فحملتني بعض اسرارها وتركت فيّ من صورها . فانظروا اليّ تشهدوا بصدق كلامي » .

فننظر ، فنرى فيها لآلئ القمر وذهب المصابيح وفضة الجبابح . وتأنس بنا الساقية ، فتثرثر وتثرثر وتقول : « خذوا ، ايها الصبية ، بحفنائكم من نقاوتي قبل ان تكدر » . فنعبّ فيها .

وتقول الساقية « انا امضي لاعدود » . فنحزن ونقول : « متى تعودين ؟ » وتقول الساقية : « لا ادري ، غير اني لا بدّ عائدة » . فنقول : « واذا ذهبنا ، نحن ، فهل نعود ؟ »

الصّدى

نطلّ على الوادي وننادي .

ننادي ، فيجيب الغادون والغاديات الى الكروم والينابيع . يحيب المنتشرون للصيد في الادغال والمنحنيات والحقول . يحيب المكارون من شتى الابعاد، ترنّ الجلاجل في اعناق دواهم وتدوي المنعطفات بنبرات مواويلهم وتثن الطريق الوعرة بوقع الحوافر . بالنداء نوقظ الغابة ، فتتأهب وتتمطى وتأخذ بالوشوشات .

يحنو الصنوبر على الشربين ، ويهمس العفص باذن السنديان ، وتتنهد الغابة تنهداً عميقاً فتتفتح الوادي بما حبست من اعراقها في وحشة الليل .

ننادي ، فتنبّ العصافير من وكناتها مذعورة وتتفجر في الفضاء تخطّ عليه سطور تغاريدها وحلقات اهوائها وتغيب في الاجواء وراء اجنحة الغمام . تنقضّ العصافير على العنب والتين في غفلة الصيادين والنواطير وتقرّ مرّ السهم بين ايادينا ومدى ابصارنا .

ننادي ، فيرجع لنا النداء المنحدر المقابل مشفوعاً باجراس الصلاة ، وتضج الوادي بالحياة ، تعمر بالطيب وحفيف الدوح وثرثرة المياه في الاغوار ، تعمر بقفز الاماعز وثغاء النعاج وخوار الابقار .

ويزقو الديك ، فتطلع الشمس في جلالها وتلمم الظلال من الحقول وتبسط سلطانها على القمم والتلال وتسلل الى الوهاد .

ونحن الصغار ، نسرّح بين الصخور ، نركض وراء الفراشات ، نتسلق الاشجار ، نخبئ في الآجام والمغاور وننادي .

ينادي بعضنا بعضاً ، ونصفي . يردّ البعض نداء البعض ولا نسمع الا ما نريد ان نسمع . نحن الحياة في الوادي ، انى نادينا يرجع الصدى نداءنا .

وننظر الى السماء وننادي . ترى يا تينا صوت من السماء لم ترجع لنا السماء صدى ندائنا !